أيهـــا الشرق . . !

أيها الشرق ! ياوطني الكبير ،

أهتف بك فتستبق إلى عيني صور باكية دامية ذليلة ، وتتدفق على ذهني ذكريات بعضها شجي يزجي الألم حادا عنيفا ، ويذكي الدم حارا مستعرا ، وبعضها حلو يثمل النفوس بالفخر ، ويهز الأعطاف بالاعجاب . .

ولكنك الآن ذليل أيها الشرق ! آه لو استطاع هذا القلم الضعيف أن ينفث في نواحيك الايمان ، ويبعث في جوانبك الأمل ، لكان سعيدا ، أنت ياوطني مهبط الحضارة ومسقط النور ، ما في ذلك شك . أنت مجال الأبطال والقوة ، ومراد الحكمة والنبوة ، ومخرج الدعاة والقادة ، هذا حق لا تخلص إليه شبهة ، ولا تنصرف اليه ريبة .

ليقل - كلنج - إن الشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان - فلسنا نتوقع من دعاة الاستعمار أقل من هذا . . ولكن الحقيقة تلطم كلنج وتلزم المكابرين من أمثاله حدود الاقتناع

فان كانت اوربا تفخر بنابليون لأنه عبر الالب وتخطى البرانس ، ونلسن لأنه كسب موقعة أو موقعتين ، ولنجتن لأنه ذبح مليونا أو يزيد ، فان الشرق ليقيه بزغلول لأنه قهر انجلترا بغير السيف والرمح ، وغاندي لأنه هزم انجلترا بغير الحديد والنار ، ومصطفى كمال لأنه دوخ في ساح الحرب أصحاب الغازات الخانقة والطائرات المحلقة والمدافع الرشاشة . . . ! وابراهيم لأنه طرق أبواب اليونان مرات وعيث بجبل أولمب مهبط الوحي وملعب الأبطال ومستقر الآلهة ! !

وإن كان للغرب أن يفخر بروسو وفولتير وشكسبير وجوت ، وبيرون ، فان الشرق والعالم يفخر بالافغاني ومحمد عبده وابن خلدون والمتنبي وفيلسوف المعرة . الشرق غني برجاله قوي بأبطاله ، خصب بحضاراته . . . ولكني بعد هذا ومع هذا لا أستطيع إلا الاعتراف بالحق — وليس ينكر الحق الا الضعاف — والحق أن الشرق كان فتيا فأصابه الكبر ، وكان قويا فأخذه اليأس والخور ، وكان عاملا فجنح إلى الراحة والاستراحة إلى المسالمة . . . هذا هو المنطق الذي يرضى الله والعقل والناس ، والحق إننا نغالي في تقدير ماضينا ونشغل به عن حاضرنا . وهل أتاك حديث المرأة الصلعاء التي أخطأها الزواج لصلعها فكانت إذا جاءها الخاطب ثم هم بأن ينصرف استوقفته قائلة « ألم تر إلى خالتي إن لها شعرا جميلا ! ! » ، هل لمحت وجه الشبه ؟

الشرق محتل كله أو يكاد : تضرب في نواحيه الخيام الدخيلة ، وترفرف على سواريه الأعلام الغريبة ، وتحلق في سمائه الطائرات الأجنبية . . . وأهل الشرق نيام ضربت عليهم الغفلة وملكهم اليأس واستبد بهم الخور وانشقت بهم العصا .

يا أبناء الشرق ! إني أخاف عليكم اليأس أن يدركم فيشل عقولكم ، ويغل أيديكم ويضل سعاكم .

أنا أعرف وأعترف أن الغاية بعيدة ، وأن السبيل قفر وعر ، وأن الشرق ضعيف الحول والحيلة ، وهذا بعينه ما يلقي في نفسي الجزع ويردني الى حيرة تشبه أن تكون جنونا لأني أخاف عليك أيها الشرق أن تلقي عصا الأمل وتغمد سيف العزيمة وترفع الراية البيضاء . . . !

وأخاف عليك ظاهرة أخرى : في الشرق تنشق العصا وتتفرق الكلمة وتشت الوحدة ، وتتبدد القوافل في شعاب الجبال فلا تزال كل قافلة تتهادى وحيدة فريدة في الوهاد والنجاد حتى ينال منها الجهد ، وتشتبه عليها السبل وتنبت بها الأسباب في صميم الصحراء . . . ! والعدو على المستشرف يرقب ويغري ويبتسم ، حتى اذا ضمن تصدع الشمل وتقطع الاسباب انقض فهاجم كل قافلة في مواضع الضعف منها ، فأطمع الاولى بالرغبة ، وقمع الثانية بالرهبة ، وأغرى الثالثة بالرابعة . . . حتى يستقيم له الامر ويخلو له الطريق ويصفو له الجو . أفليس أجمع للكلمة وأضمن للنصر وأحزم للرأي ، لو تلاقت هذه القوافل كلها في السهل فضمت شتاتها ولمت شعثها ونظمت نفسها في سرب طويل قوي ثم سارت على هداء الأمل وهداية الايمان . . ؟ ؟

مؤلم هذا الانقسام الذي يشيع في صفوف المجاهدين في بلاد العرب وفي مصر وفي الهند ، في الجزيرة ملكان مسلمان يتحاربان وفي مصر أحزاب تتطاحن . وفي الهند طوائف تجور عن السبيل والغاية والشرقي المخلص الصادق لا يستطيع أن يشهد هذا دون أن يضيق به ويأسف له ، ويتمنى على الله أن يكشف عن الشرق هذا البلاء . . .